

الموضوعية في النقد الجاهلي: قراءة في النص النقدي بين حكومة النابغة وأمّ جندب

A Reviewed Interpretation in the Literary Judgments in the Pre-Islamic Era between the Judgment of Nābighah al-Dhibyāniy and Umm Jandab

Objektif dalam Kritikan Zaman Jāhiliyyah: Hukum Nābighah al-Dhibyāni dan Umm Jandab Sebagai Kajian Kes

نصر الدين إبراهيم أحمد*

ملخص البحث:

يتناول البحث قراءة في الأحكام الموضوعية في العصر الجاهلي، ويركز على حكومتين؛ الأولى حكومة النابغة الذبياني على حستان بن ثابت، والثانية حكومة أمّ جندب بين زوجها امرئ القيس وعلقمة الفحل حيث ظلّ كثير من النقاد أنه لا توجد حكومات موضوعية في العصر الجاهلي، والحكومات التي وجدت تشككوا في أمرها، بل أنكروا بعضهم متشددين أن العصر الجاهلي ما عرف النقد الموضوعي في يوم من الأيام، ولكن جانبهم الصواب في ذلك، ونحن نعرض أنموذجا من هذه الحكومات، ونقدّم الأدلة والشواهد على صحتها، كما نناقش الآراء المعارضة مناقشة موضوعية منهجية، وهدفنا من ذلك هو مراجعة تلك الآراء التي أطلقت على هذه الحكومات، وتقديم قراءة جديدة لتقويم الموقف. ومنهجنا في ذلك هو المنهج الاستقرائي، والنقدي والتحليلي.

الكلمات المفتاحية: النص النقدي - الحكومة - الموضوعية - القراءة - المراجعة.

* أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها.

Abstract:

The paper presents a reviewed interpretation in the literary judgments in the pre-Islamic era. Two prominent judgments are selected: the first is the judgment of Nābighah al-Dhibyāni on the quality of poem of Ḥassān bin Thābit. The second judgment is that of Umm Jandab in the case between Umru al-Qays and 'Alqamah al-Fahl. This is carried out in order to fend off the claims of some that the literary critical judgement during that era was short from being objective. As we presented the selected two judgments, evidence and witness accounts on the authenticity and objectivity of the judgments will also be put forward. The claims against the objectivity of those literary critical judgments will also be discussed and contradicted. The purpose of doing so is to review them and propose a new interpretation and reading in order to evaluate this negative claims. The study is based on inductive critical and analytical approach.

Keywords: Text Critic– Government– Objectivity– Reading– Review.

Abstrak:

Kajian ini meneliti hukum-hukum yang objektif pada zaman Jāhiliyyah, dengan menfokus kepada dua hukum iaitu yang dikeluarkan oleh Nābighah al-Dhibyāni ke atas Ḥassān bin Thābit, serta hukum yang dikeluarkan oleh Umm Jandab ke atas suaminya Umru al-Qays dan 'Alqamah Al-Fahl. Kebanyakan pengkritik menyangka bahawa kritikan pada zaman Jāhiliyyah tidak objektif, lalu diragui segala hukum yang dikeluarkan, bahkan sebilangan pengkritik mengatakan tidak terdapat langsung hukum yang bersifat objektif, akan tetapi perkara itu tidak benar. Dalam kajian ditampilkan beberapa contoh hukum yang objektif, disertakan dalil serta keterangan. Pengkaji juga akan membicarakan beberapa pendapat secara objektif kemudian menyemak kembali pendapat-pendapat yang dilontarkan terhadap hukum-hukum yang tersebut, seterusnya, menampilkan penafsiran baru untuk menilai pendapat-pendapat tersebut. Kaedah kajian adalah induktif, kritikan dan analisa.

Kata kunci: Teks Kritikan– Hukum– Objektiviti– Penafsiran– Penyemakan.

مقدمة:

إن الأحكام الموضوعية تمثل جانبا مهما في النقد الأدبي، وتعتبر هذه الأحكام التي نشأت في العصر الجاهلي، واتسمت بصفة الموضوعية جزءاً مكماً للأحكام العلمية في العصر الحديث، فهي نواة النقد في عصوره المتقدمة. وقد دار خلاف بين الباحثين، وحوار عميق

عن موضوعية النقد القديم في العصر الجاهلي، وكانت زبدته عند معظمهم، أنه لا توجد موضوعية في تلك الأحكام التي أطلقها الجاهليون وقت ذاك، وأن الأحكام التي جاءت معبرة عن الموضوعية في ذلك العصر إنما أحكام مشكوك في أمرها لا شيء سوى أنها لا تمثل البيئة العربية حينئذ، لأنهم يرونها بيئة جافة بدوية صحراوية فطرية ساذجة، بعيدة كل البعد عن تلك الأحكام المعللة المسببة التي يحكمها المنطق، وتقررها العلمية.

ولكنهم جانبهم الصواب في حكمهم هذا، وجانب من أتى بعدهم من الباحثين المحدثين الذين أخذوا بنظرهم، وعرضوا التراث العربي لمخاطر جمّة، وعواقب لا يحمد عقباها، ونحن في هذا الفصل نعرض بعض الأحكام التي اشتهرت بالموضوعية، في رؤية جديدة، شعارنا المنهجية والعلمية والحديث العلمي الهادئ، والذي يخرج في خاتمة المطاف بنتيجة علمية واضحة تؤكد وجود مثل هذه الأحكام.

المبحث الأول: النابغة الذبياني وحكومته على حسان بن ثابت (رضي الله عنه):

لا شك أن النقد هو "دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها، ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها، يجرى هذا في الحسيات والمعنويات، وفي العلوم والفنون وفي كل شيء متصل بالحياة".^١

ويعتمد هذا النقد الموضوعي على "الدوق المعلل، فهو دعامة التي يستند إليها في إصدار أحكامه على النصوص الأدبية، سواء أكانت حجته لفئة أدبية تفصح عن كل شيء أم جاء في تفضيل مستمر من مقومات النص ذاته، كالنظر إلى ما فيه من عواطف وأخيلة ومعان وإيجاء، مع مقارنة كل ذلك بنصوص مماثلة تكون بلغت الجودة في بابها، وظفرت بإعجاب كبار النقاد الحاذقين أولئك الذين صقلوا أذواقهم بصقال الروائع الأدبية".^٢

وقد تحقق هذا النقد في زوايا مختلفة، قد تكون لفئة أدبية يلحظها الناقد في النص الأدبي، وهي دون شك قد تقوم مقام الشرح المطول والتحليل المستفيض، وربما هذه اللغة كافية في أن تخرج النقد عن نطاق الذاتية إلى أفق الموضوعية.

ولا شك أنه "في أواخر العصر الجاهلي كثرت أسواق العرب التي يجتمع فيها الناس من قبائل عدة وكثرت المجالس الأدبية التي يتذكرون فيها الشعر، وكثر تلاقي الشعراء بأفنية الملول في الحيرة وغسان، فجعل بعضهم ينقد بعضا وهذه التي عرفت والتي قيلت في شعر معروف".^٢

ومن ضمن هذه الأحكام الموضوعية تلك القصة التي دارت أحداثها في سوق اشتهر بجانب التجارة بالأدب والفن، فصار مسرحا للنقاد العرب وقت ذاك، ومشعلا للعلم والمعرفة، وتلك القصة تحدثت عن ذلك الناقد الشاعر العبقرى "النابغة الذبياني"، الذي كان يقوم بدور المحكم بين الأدباء والشعراء، لما عرف عنه من بعد النظر، وعمق الثقافة والمعرفة، وتلك الحنكة والخبرة والدربة التي أهلتها لهذا المنصب الحساس الرفيع.

"وروي عن إبراهيم بن أيوب الصائغ عن ابن قتيبة قال: إن نابغة بني ذبيان كانت تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء، فدخل عليه حسان بن ثابت (رضي الله عنه) وعنده الأعشى وقد أنشد شعره وأنشدته الخنساء قولها:

قذبي بعينك أم بالعين غوار

حتى انتهت إلى قولها:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وإن صخرًا لمولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لنحار

فقال: لولا أن أبا بصير أنشدني قبلك لقلت: أنك أشعر الناس! أنت والله أشعر من كل ذات مثانة (المرأة). قالت: والله ومن كل ذي خصيتين (الرجل). فقال حسان: أنا والله أشعر منك ومنها. قال: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجففات الغرّ يلمعن بالضحي وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

وقال: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قللت "الجفان" فقللت العدد ولو قلت "الجفان" لكان أكثر. وقلت "يلمعن بالضحي" ولو قلت "يرقن بالدحي" لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت "يقطرن من نجدة" فدللت على قلة القتل ولو قلت "يجرين" لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً".^٤

فقد قام نقد النابغة هذا على أسس موضوعية واضحة تركز على جانب اللفظ والمعنى وما لهما من أثر فعال في النواحي الأسلوبية، وأخذ على حسان بن ثابت (رضي الله عنه) مخالفته لقوانين قد ألفها الأدباء والشعراء في ذلك العصر، فهو لم يحسن الافتخار، حيث لأبيات شعره هذه كلمات تقصر بالموضوع دون الوصول إلى المرام، فربّ كلمات أخرى تكون أعظم معنى منها، وأوسع مفهوماً وأكثر خيلاً ومبالغة في جانب يحتاج الخيال والمبالغة، فقد ترك الشاعر الجفان، والبيض، والإشراق، والجريان، واستعمل كلمات دونها، فعيّب عليه ذلك.

"فنقده للبيت الأول يدل على وجوب التعبير عن المعنى باللفظ الذي يؤديه أداء كاملاً، بحيث ينهض اللفظ بحق المعنى كله، وهذه ملاحظة بارعة، لأن العرب تستحسن المبالغة في مواطن معينة، والفخر في هذه المواطن التي تحمل فيها وتستحب. ونقده للبيت الثاني يدل على أنه جدير بثقة الفصحاء الأذكياء من العرب، ومع أنه نموذج للنقد لا يصلح في عصرنا هذا، إلا أنه في عصره يعتبر طرازاً عالياً للفهم الدقيق للتقليد السائد في البيئة الجاهلية من الفخر بالآباء دون الأبناء، وتلك عادة ظلت راسبة في النفوس على عصر بني أمية، ثم انطلقت قوية على الرغم من رياضة الإسلام لها بمختلف أنواع الرياضات.

يقول الفرزدق فاحراً على منافسه جرير:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الجامع

فالنابغة، وهو الناقد الجاهلي، أحس بأن الفخر بالأبناء طبيعة مرتبطة بالحب الشديد، لأنه مرتبط بالغريزة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان الأعجم فهي بعد هذا قدر مشترك بين

الناس جميعاً، ومن هنا فلا مجال في مقام الفخر بأن يعتد الشاعر بمن ولد من الأبناء، فإذا شاء له أن يفتخر، فلعدد مآثر آبائه وأجداده، وهكذا كان منهج الفخر حينذاك".^٥

ولكن بعض النقاد المعاصرين، قد تشككوا في المحاكمة الأدبية، وأنكروها لأسباب واهية، ومن بين هؤلاء المنكرين طه أحمد إبراهيم الذي ارتكز إلى حقائق يمكن نفيها، والرد عليها بمنطق سليم، فهو يقول: "وتختلف القصة طولاً وقصراً، وتختلف فيها وجوه النقد، وكل ذلك تأباه طبيعة الأشياء، وكل ذلك يرفض رفضاً علمياً من عدة وجوه:

١. فلم يكن الجاهلي يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير، وجموع الكثرة وجموع القلة، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الأشياء كما فرق بينها الخليل وسيبويه، ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ، وألم بشيء من المنطق.

٢. ولو أن هذه الروح العلمية، جاهلية لوجدنا أثرها في عصر البعثة، يوم تحدى القرآن العرب وأفحمهم إفحاماً، فقد لجأوا إلى الطعن عليه طعناً عاماً، فقالوا سحر مفترى وقالوا أساطير الأولين، ولو أن لديهم تلك الروح البيانية لكان من المنتظر أن ينقدوا القرآن على نحوها، وأن يفزعوا إليها في تلك الخصومة العنيفة التي ظلت نيفاً وعشرين عاماً، هذا إلى أن تلك الروح في النقد لا أثر لها في العصر الإسلامي لا عند الأدباء ولا عند متقدمي النحويين واللغويين.

٣. على أن نحاة القرن الرابع من لم يطمئن إلى ما سبق، فأبو الفتح عثمان ابن جني يحكي عن أبي علي الفارسي أنه طعن في صحة هذه الحكاية. وهذه الزيادات لا تثبت للروح العلمية، ولا للتاريخ. وبعيد كل البعد أن توجد ملكة الفكر في النقد الجاهلي، وأن توجد على هذا النحو الدقيق الذي يحلل، ويوازن ويفرق بين الصيغ تفريقاً علمياً".^٦

لا شك أن هذه الأدلة الثلاث تمثل نوعاً من المجازفة لا تحمد عواقبها، فكيف تحكم على العربي الثقة الذي يدرك بحسّه وفطرته مواطن الضعف، ويتحسس مواطن الخلق والإبداع في الكلمة بهذا الحكم الجائر؟ وكيف يتهم من عُرف بملكة الكلام، والذوق المرفه، والفصاحة والبلاغة، والحس الرقيق، بهذه التهم الباطلة؟ وهل كان العربي لا يعرف المصطلحات، ولا يعرف أن يميز بينها، ولا يدرك بحسه وذوقه الرفيع أن هذا السياق يفيد الكثرة، وذلك يفيد القلة، بل حتى إنه لا يعرف الظروف الدقيقة بين دلالة الألفاظ، وما توحى به المعاني؟ إذا كان الأمر كما يذهب طه أحمد إبراهيم، لكان هناك اضطراب واضح في النماذج البيانية، بل كان هناك فساد واضح في لغته نفسها. وهل يتخيل الباحث أن العربي صاحب اللسان والبيان تنحدر لغته إلى هذه الهاوية السحيقة، وتناسى الباحث قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^٧ ونسي أن القرآن الكريم تحدى العرب ببيانه وإعجازه وبلاغته، فإن لم يكونوا أصحاب بيان ولسان، فلماذا يتحداهم، وما قيمة التحدي إذن؟

يقول بدوي طبانه: "وإن كان الشك في اقتدار النابغة على أن يظهر تلك الحجج التي فند بها بيتي حسان في معرض الخصومة والتحدي فما نرى هذا الرأي؛ لأن الدعوى بأن الجاهلي لم يكن يعرف جمع التصحيح والتكسير وجموع القلة وجموع الكثرة، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الأشياء كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه، ولأن مثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم وعرف الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ وألم بشيء من المنطق، قول مردود. فإن هذه الكلمات التي جرت على لسان النابغة في مجلس التحكيم كما أوردها الرواة لا يستلزم صدورها مثل هذه المعرفة بمصطلحات العلوم التي عرفت في القرن الثالث الهجري، لأن ألفاظ تلك المصطلحات لم تجر على لسان النابغة، وإن كان قد جرى ما يشبه مدلولها، فإن العربي أعلم بلغته وأقدر على التصرف منها من غير حاجة إلى معرفة تلك المصطلحات، لأن العربية لغته التي يعرف تفاوت أساليبها من غير أن يعلمه أمثال الخليل وسيبويه وأضرابهما، ومثل هذين العالمين وغيرهما إنما أخذوا ما يعلمه العرب

بفطرتهم ليعلموا به غير العرب، أو ليعلموا العرب الذين نزحوا عن وطنهم الأول وفسدت لغتهم بمخالطة غيرهم. فإذا قال النابغة لحسان: أقلت جفانك وأسيافك، فلم يكن وهو العربي المحكم ليتعلم من علم الخليل وسيبويه أن العرب تعرف "الجفان" كما تعرف "الجففات" وتعرف "السيوف" كما تعرف "الأسياف"، وتعرف فضل ما بين اللفظين، وعن مثل قول النابغة أخذ أمثال سيبويه والخليل ما استطاعوا أن يأخذوا من لسان العرب. أما ذهاب النابغة إلى تخطئة حسان في فخره بالأبناء دون الآباء فلأنه أعرف بصفات المدح التي لا تغفل فيها العرب مآثر الآباء والأجداد، وما نظن منصفاً يرى أن تخطئة النابغة حسان في هذا يستلزم معرفة الفروق البعيدة بين دلالة الألفاظ على المعاني، أو الإمام بشيء من المنطق لأن معنى هذا أن الناس قد حرّموا العقل والتفكير حتى طلع على الإنسانية أرسططاليس، وذلك ظلم للعقل الإنساني والتفكير الفطري الذي ميّز به الإنسان من سائر أنواع الحيوان، ولم يقل بهذا القول الظالم أحد حتى صاحب المنطق نفسه".^٨

ويؤكد عبد الرحمن عثمان ما ذهب إليه بدوي طبانة قائلاً: "وهذه الأدلة الثلاثة لا تثبت على النظر والبحث، وذلك أن القطع بجهل العربي في الجاهلية بأسرار لغته، واستعمال ألفاظها في مواضعها، يعتبر نوعاً من المجازفة التي لا تؤمن عواقبها، لأن اتّهامه بهذا يستتبع . لا محالة . القول باضطرابه في نماذجه البيانية، ويستتبع كذلك تخطئه في استعمال الألفاظ، ولم يقل أحد بأنه لا يعرف الفرق بين ما يدل على الكثرة وبين ما يشير إلى القلة، وأكاد أزعّم أن جمهرة الجاهليين وعامتهم يدركون هذه الفروق ويفطنون إليها، فإذا راعينا أن النابغة له ثقافة ممتازة رشحته لهذه المكانة، أدركنا بطلان هذا الدليل وفساده، ثم إن النحاة من أمثال الخليل وسيبويه استنبطوا قواعد النحو من استقراءهم لكلام العرب، ولم يبتدعوها من عند أنفسهم كما هو معروف".^٩

أما عن الاستدلال الثاني، والذي يحصره طه أحمد إبراهيم في تحدي العرب للقرآن لو كان لهم مثل هذه الروح النقدية، فأعتقد أنه اعتقاد لا يسلم من حيف وضعف، فالقرآن

الكریم هو كلام الله سبحانه وتعالى الخالق البارئ المصور، فكيف يدخل الشك في قلب الباحث، بل يراوده لحظة واحدة، أن المخلوق الضعيف يستطيع أن يقف أمام بلاغة الخالق، إنه شيء طبيعي أن يعجز القرآن العرب أصحاب البلاغة والفصاحة والبيان، أليس هذا القرآن كلام الخالق عز وجل؟ بل لو كان قد وجد العرب فيه شيئاً لما تركوه أبداً، ولكن هيهات ذلك.

يذهب عبد الرحمن عثمان إلى أن "الاستدلال بعدم ظهور ذلك النقد في مواجهة القرآن الكريم، هو استدلال عجيب لم أر قط مثله، والمشركون لو أنهم وجدوا في آيات الكتاب المقدس ما ينفذون منه إلى إسقاطه والنيل من بلاغته لفعلوا أكثر مما جاء في نقد النابغة، وقد كان فيهم أهل البيان والفطنة والثقافة، والاستعمال القرآني لم يجيء منه شيء على النحو الذي أظهره النقد في شعر حسان".^{١٠}

أما عن تشكك ابن جني فيما رواه عن أبي علي الفارسي، فلا شك أن هذه الرواية لا سند لها، وما بُنيَتْ على أسس وأسباب منطقية علمية، وهي رواية نشك في صحتها، إذ إن المصادر القديمة وأمّهات كتب النقد والأدب لم تشر إلى هذه الرواية "ولسنا نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المتشككين من الطعن في صحة هذا النقد، فإن سوق عكاظ كانت في الجاهلية مجتمعاً للعرب وموسماً لحجّهم وتجارهم ومعرضاً لأدبها وأخبارها، واحتكام الشعراء إلى النابغة أمر يعرفه العرب لمن كان جليس الأمراء وشاعر الملوك في بلاط المناذرة والغساسنة، وتُجمع عليه كتب التاريخ والأدب".^{١١}

تتسع في هذه القصة، وفي ذلك الحكم دائرة النظرة الموضوعية التي تذكر الأسباب، وتعلل المساوئ وتوضح الاستهجان من عبارات الشعر نفسه، وبطريقة منطقية يتقبلها العقل، والبحث عن الحقائق من مظانها. وأما الشك في مثل هذه الأشياء فإنما هو في حقيقة الأمر إهدار لثقافة العرب، ومدى تفوقهم في هذه المجالات الأدبية، واللغوية.

يرى عبد الرحمن عثمان أن "رواية ابن جني فيما حكاها عن أبي علي الفارسي، رواية عن نحوي جليل، لم نعرف له سنداً ولا شبه سند في الطعن وإنكار هذه الظاهرة التي تتعلق

بالنقد أكثر من تعلقها بجموع الكثرة والقلّة، ولم نعرف عن الفارسي أنه كان من نقاد العصر العباسي".^{١٢}

إذن فهذا النقد يدخل في حكم النقد الموضوعي الذي يعتمد على الذوق المعلن، والذي يمثل دعامة مهمة بالنسبة له، يستند عليها في أحكامه في تحليل تلك النصوص الأدبية التي تعرض له. ولعلّ هذا النوع من النقد هو الذي يربط ما بين الألفاظ والمعاني، ويراعي ما يقتضيه المقام في موضع المدح، وهذا بالطبع ما تقتضيه بلاغة الكلمة عند العرب، فلكل مقام مقال، وينبغي أن يراعي الأديب مقتضى الحال "ووضح كل الوضوح أن نقد النابغة للبيت الأول من قصيدة حسان ابن ثابت، وهو النوع الذي يتعلق بالربط بين اللفظ والمعنى في نقد الجاهليين. فأما نقده للبيت الثاني، فإنه اتصال بالنقد من جهة المعنى وما يقتضيه المقام في باب الفخر على طريقة الجاهليين".^{١٣}

ولا شك أن هذا الجانب يمس جانباً لا يستهان به من جوانب البلاغة، إذ إن البلاغة العربية تراعي دائماً ما يقتضيه المقام، فلكل مقام مقال. ونرى بعض الباحثين يتهم الناقد الجاهلي بعدم الموضوعية في أحكامه بل أحياناً يبالغ في الاتهام، وينحرف مع التيار، ويقوده الحماس دون أن يدري إلى تشويه سمعة الناقد العربي في ذلك العصر. ومن هذه الأمثلة ما ذهب إليه مصطفى علي عمر متحدثاً عن تلك الأحكام: "وكانت هذه الأحكام عامة وتخلو من التحليل العميق والتعليل، ونرى أن مرد هذه البساطة في الأحكام إنما يعود إلى خاصية عدم الاستقرار التي اتسم بها المجتمع الجاهلي، كما افتقد هذا المجتمع سمات التأمل والتفكير والتعقيد، وهي من السمات التي تعمل على ازدهار النقد".^{١٤} وقد اعترف كثير من الباحثين أن "هذه الأحكام مع بساطتها كانت تدل على ذوق فني رفيع وقرائح صافية ذواقة عليمّة بالشعر وبواطنه".^{١٥}

المبحث الثاني: أمّ جندب وحكومتها بين زوجها وعلقة الفحل

تمثل هذه الحكومة نمطاً من الأحكام الموضوعية التي كانت على قلتها تمثل جانباً ثقافياً وأدبياً فريداً جادت به قريحة أولئك النقاد الأفاضل في تلك الفترة التي اعتبرها كثير من الباحثين، حقبة انعدمت فيها الأحكام الموضوعية، ونمت الأحكام الذاتية وشاعت، وأصبحت سمة - كما يرون - اتسم بها ذلك العصر الجاهلي.

"فقد روي أن امرأ القيس لما كان عند بني طيء زوجوه منهم أم جندب... وبقي عندهم ما شاء الله، وجاءه يوماً علقمة بن عبدة التميمي وهو قاعد في خيمته وخلفه أم جندب، فتذاكر الشعر، فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك! وقال علقمة: بل أنا أشعر منك! فقال: قل وأقول! وتحكما عند أم جندب، فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها:

خليبي مرّاً بي على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

ثم قال علقمة في القافية والروي قصيدته التي مطلعها:

ذهبت من المجران في غير مذهب ولم يكن حقاً كل هذا التجنب

واستطرد كل منهما في وصف ناقته وفرسه، فلما فرغ علقمة، فضله أم جندب على امرئ القيس، فقال لها: بما فضّلت عليّ؟ فقالت: فرس ابن عبدة أجود من فرسك! قال: وبماذا؟ قالت: إنك زجرت وحركت ساقيك وضربت بسوطك! تعني قوله في قصيدته حيث وصف فرسه:

فللزجر الهوب وللساق درة وللسوط منه وقع أخرج مهذب

وقال علقمة:

فأدركهنّ ثانياً من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلّب

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه، لم يضره بسوط ولم يتعبه. فقال: ما هو بأشعر مني، ولكنك له عاشقة! وطلقها، فخلف عليها علقمة الفحل".^{١٦}

فهذه القضية قد شغلت حيزاً كبيراً لدى النقاد والباحثين عن الحقيقة في ميدان النقد الأدبي في العصر الجاهلي، فقد اختلفت فيها وجهات النظر ما بين مؤيد ورافض لمبدأ التحكيم، وما بين شاك ومتردد لأصل القصة، وما بين مثبت ومؤكّد لهذه الحكومة.

ويشير بدوي طبانة قائلاً: "فإنّا لا نجد في هذه الرواية التي تظاهرت عليها كتب الأدب سبيلاً إلى الطعن في صحتها، فقد عرفنا من صفة امرئ القيس ما عرفنا، ومن هوى زوجته ما بدأ في حكمها الذي لا يستند على أساس من استقراء القصيدتين وتتبعهما في سائر المعاني والألفاظ التي اشتملت عليها كل منهما، وقد أكدت ذلك الهوى تلك النتيجة التي أدّى إليها الحكم، وهي زواجها من علقمة الذي أعلنت إعجاباً بشعره بعد أن بانّت من بعلمها البغيض. ثم التنافس بين شاعرين كبيرين والاحتكام إلى من يريان تحكيمه ليس فيه شيء من الغرابة وليس بغريب أيضاً أن يشترك شاعران في بيتين أو أكثر فإن مقام الارتجال قد ينسي الشاعر أن البيت لغيره فيحسبه لنفسه، وقد وقع في مثل هذا شاعر من فحول الجاهليين وهو طرفة بن العبد في بيته المعروف من المعلقة:

وقوفاً بها صحي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

أخذه بأكثر ألفاظه من قول امرئ القيس في معلقته:

وقوفاً بها صحي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمّل

ولم يغير فيه سوى القافية، ولا يستبعد أن تكون الأبيات المتحدة في القصيدتين من أوهام الرواة، أو أن علقمة قد ساقها في شعره على سبيل ما عرف عند البديعيين أخيراً باسم "التضمين" وكأنه في هذا يعرض بامرئ القيس بأن مواضع هذه الأبيات كان يجب أن تكون حيث وضعها علقمة".^{١٧}

ولعلّ هذا يظهر أن أم جندب حاولت أن تفسّر سر تفضيلها شعر علقمة على شعر امرئ القيس، فحاولت أن تتلمس علة موضوعية واضحة، لا تختلف فيها الآراء، تسوّغ بها رأيها، فوجدت ضالتها في بيت واحد أشار إليه امرؤ القيس حين أنشد:

فللزجر الهوب وللساق درة وللسوط منه وقع أخرج مهذب

رأت أم جندب في هذا البيت أن امرأ القيس زجر وحرك ساقيه، وضرب بسوطه، وبذلك أدرك ما أراد، بينما فرس علقمة أدرك -فقط- ثانياً من عنانه! دون أن يضربه بسوط، وذلك في قوله:

فأدركهن ثانياً من عنانه يمرّ كمرّ الرّائح المتحلب

إذن فالموضوعية كانت تمثل طرفاً أو جانباً يحمّد له في النقد الجاهلي، فلم تخلو الأحكام والآراء في ذلك العصر من الموضوعية، وليست الذاتية هي الجانب المهيمن فقط على النقد الجاهلي، "وليس معنى ما تقدّم أن نظرة الجاهليين أو النقاد منهم إلى الشعر قد حلت تماماً من النظرة الموضوعية، أو نقدهم للشعر قد وقف عند الحد الذي تملّيه العواطف والأحاسيس نحو الشعر الذي يسمونه أو نحو صاحبه، فقد بان في بعض الأمثلة التي سقناها ما يدل على النظرة الموضوعية، فمن ذلك نظرة أم جندب في بيتي الشاعرين وتفضيلها علقمة لأن فرسه أجود، فقد أدرك ثانياً من عنانه على حين أن فرس امرئ القيس استحثّه راكبه بالزجر وتحريك ساقيه وإلهابه بسوطه حتى أدرك ما أراد، ومع ما في هذا القول من التعنت والإسراف فإنه محاولة لالتماس العلة والبرهان".^{١٨}

وهذا ليس كما ذهب شوقي ضيف إليه، حيث حسب أن هذه الأحكام تدل على الإحساس الساذج والذوق الفطري، حيث قال: "وكل هذه الآراء والأحكام بسيطة، فهي ثمرة نقد أولى يعتمد على الذوق والإحساس الساذج الذي لم يتعقد. وقد يكون أدخل هذه الأحكام في باب النقد حكم زوجة امرئ القيس. مع ذلك فإنها وقفت عند جزئية، وقد يكون علقمة أشعر في هذه الجزئية من زوجها، ولكن زوجها أشعر منه في القصيدة جميعها. على أن العيب قد يكون في فرس امرئ القيس، فهو وصاحبه جميعاً إنما يصفان الواقع، وحتى

وإن سلمنا لها بأن قصيدة علقمة أجود من قصيدة زوجها فإن ذلك لا يعطيها الحق في أن تحكم له حكماً عاماً بتفوقه في شاعريته عليه، وأنه أشعر منه".^{١٩} وهنا يناقض شوقي ضيف رأيه، لأنها لم تحكم حكماً عاماً، وإنما حكمت في جزئية، كما ذهب هو نفسه.

ولكن بعض النقاد والباحثين قد تشكك في هذه القصة وطعن فيها، وكاد أن يرفضها برمتها، ومن هؤلاء الأستاذ طه أحمد إبراهيم حيث ذكر أن "في هذه القصة طعناً إن لم يحمل على رفضها جملة، فهو يحمل على رفض كثير منها. في قصيدتي علقمة وامرئ القيس توافق في غير بيت، وفيهما مشاركة في كثير من الألفاظ والعبارات والمعاني. ولو جعلنا قصيدة امرئ القيس أصلاً - إذ إنه الذي أنشد أولاً - كانت قصيدة علقمة تكراراً لها في أبيات بتمامها، وفي شطرات والحكم بتفضيله على امرئ القيس يكون إذن غير معقول، لأن علقمة كرر ما قاله صاحبه، فإن يكن هناك بيت لامرئ القيس يشم منه أنه حمل فرسه على الجري حملاً فقد استدرك في البيت الذي يليه.

أضف إلى الريبة التي يحمل عليها التوافق في النص، والتي يحمل عليها الانحراف في الحكم، أن امرأ القيس عرف بوصف الخيل والصيد، وشهر بذلك دون الجاهليين. وهو في المعلقة، وفي قصيدته اللامية لا يجارى في هذا الصدد. ولعل ذلك ما حمل عبد الله بن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس، وذلك محتمل. فهي وإن جرت على مذهبه الشعري خالية من طابعه الذي نحسه في شعره.

ثم أن الموازنة على شريطة الجمع بين ثلاثة أشياء فكرة على شيء من الدقة لا تتلاءم مع الروح الجاهلي في النقد الأدبي. هذا إلى أننا نرتاب في أن جاهلياً يدرك الفرق بين الروي والقافية، ونرتاب في أن هذه الألفاظ تستعمل في العصر الجاهلي بمعناها الاصطلاحي".^{٢٠}

والحقيقة أننا لا نوافق مع ما ذكر الأستاذ الجليل طه أحمد إبراهيم للأسباب الآتية:
أولاً: ليس هناك ما يجعلنا ننكر هذه الحكومة اعتماداً على الظن والتشكك، فالأستاذ طه أحمد إبراهيم نفسه لم يحمل على رفضها جملة، ومعنى هذا أنه لم يستطع أن ينكرها.

ثانياً: التوافق الذي يوجد بين القصيدتين منطقياً لا يحمل على رفض الحكومة نفسها، بل يمكن القول أن علقمة الفحل استفاد من قصيدة امرئ القيس، ومن أفكاره، ومن معاني القصيدة. ولكن هذا على أي حال لا ينفي وجود الحكومة التي قامت بها أم جندب كما أنه لا يلغي الأحكام الموضوعية التي ارتكزت عليها.

ثالثاً: إننا لا نحاسب أم جندب، لكونها لم تقف على القصيدة كلها، وتوازن بين بيت وآخر بطريقة علمية كما هو الحال في عصرنا الحديث هذا، لأن هذا يعتبر مغالاة في الحكم عليها، فنحن لا نطلب منها المستحيل ولكن نطلب منها ما يطلبه العقل دون مبالغة، والواضح أن العرب كانت لديهم فكرة عن تلك المقاييس التي أطلقتها أم جندب، فلم يعترض على تلك المقاييس امرؤ القيس على أي حال، وإنما اعترض على وقفها بجانب خصمه علقمة الفحل.

رابعاً: لم ينكر أحد من الثقات المتأخرين هذه الحكومة، وإذا كان ابن المعتز تم يذكر هذه القصيدة عندما تطرق لشعر امرئ القيس، فهذا لا يكون دليلاً على إسقاط الحكومة برمتها والطعن فيها، فابن المعتز لم يذكر جميع قصائد امرئ القيس، بل اختار طرفاً من أشعاره.

خامساً: لم تذكر أم جندب هذه المقاييس بالمصطلحات المتعارف عليها في العصر الحديث لأننا بالطبع لا نطالبها بشيء فوق تخيلها، ولكن على الأقل كانت تعرف معنى ما تتضمنه هذه المصطلحات، ولو لم يكن الأمر كذلك فإننا نتساءل كيف استطاع العرب أن يطوروا قصائدهم في شكل بحور وأوزان مستقيمة، كما هو موجود في القصائد الطوال وأشعارهم كافة. فلا شك أنهم كانوا يعرفون ما تتضمنه هذه المصطلحات من معاني، أو على الأقل ما يشبه مدلولها، فإن العربي أعلم بلغته وأقدر على التعرف عليها من غير حاجة إلى تلك المصطلحات "لأن العربية لغته التي يعرف تفاوت أساليبها من غير أن يعلمه أمثال الخليل وسيبويه وأضرابهما، ومثل هذين العالمين وغيرهما إنما أخذوا ما يعلمه العرب بفطرتهم

ليعلموا به غير العرب، أو ليعلموا العرب الذين نزحوا عن وطنهم الأول وفسدت لغتهم بمخالطة غيرهم".^{٢١}

ويرى عبد الرحمن عثمان أنها قصة مفتعلة قصد منها إثبات كراهية أم جندب لامرئ القيس لأسباب لا محل لذكرها، ويؤكد ذلك ما نلاحظه على القصة ذاتها:

١. فمن المستبعد أن يتحاكم شاعران ناهجان إلى من لم تشتهر بالتفوق في الشعر أو الحكمة وسداد الرأي حينذاك.

٢. جعلت الرواية من أم جندب ناقدة مثالية، وذلك حين وضعت قواعد للموازنة الشعرية باشتراطها الاتحاد في الموضوع والوزن والقافية، وهذا مما لم تسبق إليه في عصرها.

٣. جاء نقدها بعيدا عن فهم البيئة العربية للخيال وطبائعها، فهي تعيب على زوجها أن أجهد فرسه، وتمدح علقمة لوصفه فرسه بأنه أدرك الطريدة وفيه فضل من قوة ونشاط حتى اضطر إلى أن يثني من عنانه ليحد من عدوه والمعروف أن الخيل لا تلتقي على طبيعة واحدة.

٤. الإجماع منعقد على أن امرأ القيس كان ولا يزال هو المقدم في وصف الخيل من بين الشعراء جميعاً^{٢٢}.

ويختتم أخيراً الدكتور عبد الرحمن عثمان بقوله: "وما دمنا غير مطمئنين للموازنة التي عقدتها أم جندب بين قصيدي امرئ القيس وعلقمة فإننا في حل من إنكار هذا النوع من النقد، فالجاهليون لم يعرفوا عنه شيئاً، إذ هو أدق الأنواع من المناهج النقدية وأرقاها، وأشدّها وعورة وخفاء، فليس بمعقول أن يهتدي إليها الذهن العربي بمثل ما يعزى إلى أم جندب، فإذا شاء أن يثبتته ناقد في الحديث عن النقد الجاهلي، فإن له ذلك، ولكن على أن يبطل ما سقنا من أدلة، وأن يزيل كل ما يثور حول هذه القصة من شكوك".^{٢٣}

وإذا أمعنا النظر في هذه الأدلة، فإنها لا تخرج أن تكون أدلة ظنية في كثير من جوانبها:

أولاً: ليس شرطاً أن تكون أم جندب من اللاتي اشتهرن بالتفوق في ميدان النقد والشعر، لأن الحكومة التي صدرت عنها، لم تكن في محل عام، وإنما كان ذلك في خيمتها المتواضعة، أضف إلى أنها كانت زوج رجل شاعر لا يستهان به، طاف بين المدن والحضر وتثقف بثقافات شتى، وإننا نعلم جيداً أنه اتصل بملك الروم. فمما لا شك فيه أن هذه الثقافات المختلفة وتلك الخبرة الواسعة قد وجدت طريقها إلى زوج هذا الشاعر الخنذيذ.

ثانياً: ربما هناك حلقات من النقد الأدبي في العصر الجاهلي سقطت من يدي الزمن، فلم نجد إليها طريقاً أو سبيلاً، وربما لو وجدت هذه الحلقات لحلت مشكلات كثيرة، وربما تكون أم جندب هي نفسها جزء من هذه الحلقات المفقودة، خاصة حكومتها التي لم يظهر منها سوى هذه الحكومة، والتي عبّرت عن فهم عميق، وموضوعية واضحة. خاصة وأن النصوص المعبرة عن العصر الجاهلي لم تصل إلينا كلها بل جزءاً يسيراً، يكشف بعضه عن موضوعية وعقلية ناضجة.

ثالثاً: ثم أنها حكمت في موضع معين محدد، حكمت في بيت واحد أجرت فيه موازنة موضوعية لا خلاف فيها، وإذا كانت زوج امرئ القيس، وفتاة البوادي والصحاري لا تفهم البيئة العربية للخييل وطبائعها فمن يفهم إذن؟ هذه دون شك مجازفة لا تحمد عواقبها.

رابعاً: إننا لا ننكر تمكن امرئ القيس، وشهرته في وصف الخيل، ولكن أم جندب جاءت موازنتها محصورة في بيت بعينه لم تتعداه إلى القصيدة كلها، ومن ثم برزت نظرتهما واضحة محددة بعيدة عن التكلف والمجاملة.

ومن ثم فإننا لا ننكر جانب الموازنة في النقد الجاهلي، ولا نتهم الذهن العربي بالقصور والتخلف والجمود. فهذه أخطاء جسيمة تسئ إلى تراثنا العربي، وتصفه دائماً بالتخلف وعدم الجدية والابتكار والموضوعية. وكأنما العرب أمة خلت ثقافتها -تماماً- من الفكر والمنطق والموضوعية، لم يلهمها الله سبحانه وتعالى نعمة العقل والتأمل والإدراك.

الخاتمة:

ولعل هذه الرؤية والقراءة تتمثل في النقد الموضوعي، الذي يقوم على أسس راسخة، ويقدم أسباب منطقية، وتعليلات سليمة، وبراهين واضحة، وأدلة شافية.

وهذا النوع من النقد وجد في العصر الجاهلي - كما وضّحنا - ولكنه في نطاق ضيق، وذلك لأسباب لا يجملها التاريخ وأحداثه، بعد الفتن التي قضت على كثير من المخطوطات العربية. وبالرغم من ذلك، فقد وردت بعض الآراء والأحكام التي اتخذت من الموضوعية صنعة وسمّة لها، وإن كان ذلك على قلة. كما أسلفت. وقد بذلنا ما في وسعنا لمناقشة هذه الأحكام، مناقشة موضوعية بعيدا عن الميل والهوى، والله الموفق.

هوامش البحث:

- ^١ الشايب، أحمد، أصول النقد الأدبي، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٨، ١٩٧٣م)، ص ١١٥.
- ^٢ عثمان، عبد الرحمن، معالم النقد الأدبي، (مصر: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص ١٣.
- ^٣ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (بيروت: دار الحكمة، د. ت)، ص ١١.
- ^٤ الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، (مصر: طبعة دار الكتب، طبعة ساسي المغربي، مطبعة التقدم)، ج ٩، ص ٣٤٠.
- وانظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٤هـ)، ج ١، ص ٣٠٣.
- ^٥ عثمان، معالم النقد الأدبي، ص ١٠٢.
- ^٦ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ١٩-٢٠.
- ^٧ سورة النحل، الآية ١٠٣.
- ^٨ طبانة، بدوي، دراسات في نقد الأدب العربي: (مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٤م). ص ٤٩-٥٠.
- ^٩ معالم النقد القديم ص ١٠٣-١٠٤.
- ^{١٠} السابق نفسه، ص ١٠٤.
- ^{١١} طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ص ٤٩.
- ^{١٢} عثمان، معالم النقد الأدبي، ص ١٠٤.
- ^{١٣} السابق نفسه.
- ^{١٤} عمر، مصطفى علي، في النقد الأدبي القديم، (مصر: دار المعارف، عام ١٩٨٧م)، ص ٢٨.

- ^{١٥} مرسى، محمد الحسيني، مفهوم الشعر في النقد العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، (الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص ٣٢.
- ^{١٦} المرزباني، الموشح، (مصر: طبعة دار النهضة، ١٩٦٥م)، ص ٢٨-٣٠. وانظر: الأصفهاني، الأغاني، ج ٢١، ص ٢٠٢-٢٠٣. وانظر: لويس شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية، (بيروت: ١٩٢٦م)، ج ١، ص ٢٢-٢٩.
- ^{١٧} طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ص ٤٧-٤٨.
- ^{١٨} السابق نفسه، ص ٥٦.
- ^{١٩} ضيف، شوقي، النقد، (مصر: دار المعارف، ط ٤، د. ت)، ص ٢٥.
- ^{٢٠} تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٢١-٢٢.
- ^{٢١} طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي، ص ٤٩.
- ^{٢٢} عثمان، معالم النقد الأدبي، ص ١٠٦-١٠٩.
- ^{٢٣} السابق نفسه، ص ١١٠.